والذين ترجموا كتاب الشعر لم يفهموا التراجيديا ، ولم يعرفوها ، ونسوا أن يتساءلوا : لم اختير لفظ المديح ليعبر عن التراجيديا .

« ٣ »

فى كتاب الدكتور طه مصطلحان يتمايزان أحدهما هو البحث والثانى هو القراءة ، وسنحاول فى هذه الكلمات أن نعرف كيف التمس الدكتور طه السبيل إليهما ، ويجب أن نذكر أولا ما كان من أمر طه فى كتابه عن الأدب الجاهلى ، ففى هذا الكتاب يتساءل عما يمكن أن نسميه مظاهر النزاع والخصومة بين الشاعر من ناحية وثقافة المجتمع من ناحية ثانية .

وإذا كانت ثقافة المجتمع قبل الإسلام تقوم على عناصر معينة من التوافق السطحى أو غير السطحى فإن طه كان يرى هذا التوافق وجها واحدا . كان يرى الخلاف آية الأعماق الدفينة فى حياة المجتمع . وقد قرأ الدكتور طه فى الشعر الجاهلى فضيلة الكرم التى تعبر فى الظاهر عن المصالحة ومايشبه الوفاق المتبادل بين الناس،ونهوض بعض الطبقات بواجبها . ولكن ذلك كله لايخدعه لأنه يرى منذ البدء أن حياة المجتمع بطبيعتها قلقة ، وأن الشاعر بطبيعته يتساءل عن الخصومة الدفينة بينه وبين المجتمع .

لقد كان مفهوم البحث لامحالة مرتبطا بتتبع آثار الصراع أو الجدال بين الشاعر ومجموعة الأعراف التى تسود المجتمع ، والناس يقرءون كتاب الأدب الجاهلى فيذكرون أشياء ، وينسون هذه الخصومة التى ملكت عقل الدكتور طه .

أغرب الأشياء أن الدكتور طه تساءل هل كان العقل العربى قبل الإسلام خصما لايطمئن إلى أشياء كثيرة ، ولا يقف منها موقف التسليم . هذا التساؤل واضح لايمكن أن يخطئه القارىء الدقيق : فقد ظهر على سطح الشعر الجاهلى علامات كثيرة من التوافق ، والاعتراف المتبادل ، والخضوع الواضح لطائفة من التقاليد والأنماط . ولكن كان مفهوم البحث فى هذا الكتاب يكاد يرادف مفهوم المخالفة الباطنية .

وإذا تتبعنا بعض جوانب الكتاب وجدنا الدكتور طه مولعا بما يشبه أن يكون تنازع الشعراء أو بعض الشعراء مع اللغة ذاتها . وقد يظهر هذا النزاع فى إيثار لون من الغريب . وقد يظهر مرة أخرى حينما يقضى بعض الشعراء حولا كاملا من أجل إنشاء